(٣٢)
الإسلام الوسطي المعتدل

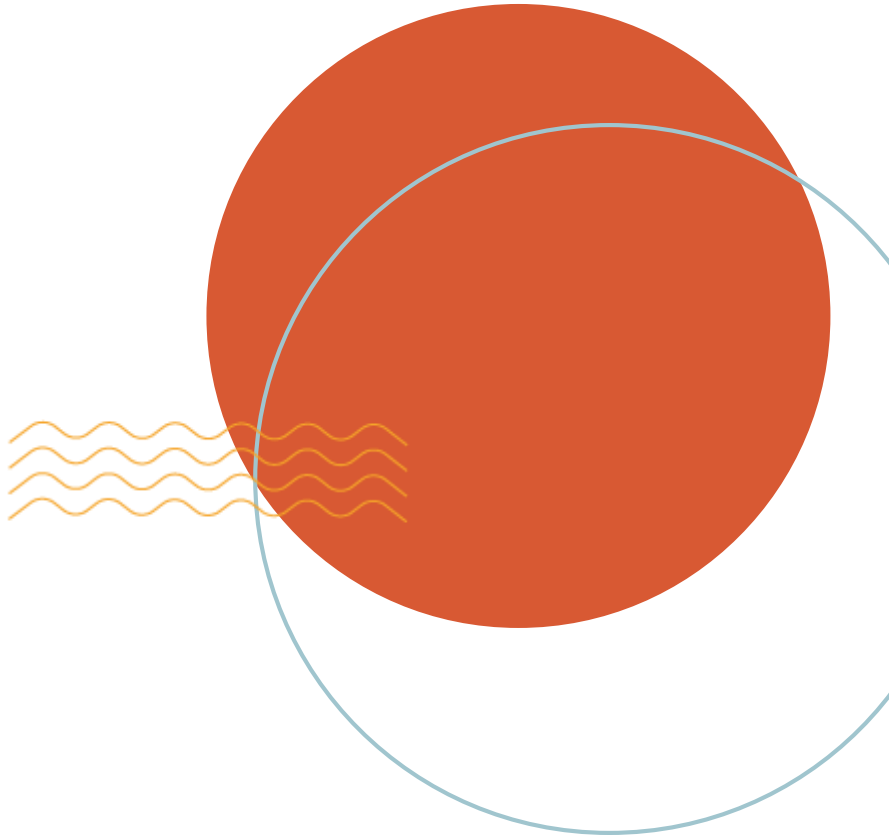

يُقصد بهذا المصطلح أن نتمسك بالإسلام وفق رؤية معتدلة لا غلوَّ فيها ولا تطرف، وهذا المعنى من حيث هو ليس محل إشكال.

لكن هذه المقولة تتضمن سياقات ومضمرات لا بد من فحصها، وإظهار ما فيها من مشكلات، وسنذكر منها هنا سياقين مهمين:

السياق الأول:

ما سبب تخصيص الإسلام بوصف الاعتدال ليكون ملازماً له؟

لماذا لا يقال نحن نتمسك بالإسلام، والسنة، والشريعة، وفق المنهج الصحيح؟

إنَّ هذا التخصيص يحمل في طياته موقفاً سلبياً؛ فكأن الإسلام أصبح في حالة مشكوك فيها، فلا بد من التبرؤ منها حتى لا يُساء الظن بصاحبها.

وقوع الناس تحت سطوة الإعلام، التي سعت لربط الإسلام بالغلو والتطرف، وزاد من ذلك بعض من رسَّخ هذا الانطباع بممارسات مغالية ينسبونها إلى الدين.

والحقيقة أنَّ دين الإسلام هو دين الاعتدال، فليس ثمّ حاجة لأن نقيِّده بهذا الوصف، وحين نقول الإسلام فهو الإسلام بأحكامه وأصوله، هو دين العدل والاعتدال والرحمة والنجاة في الدنيا والآخرة.

ووجود من يغلو لا يعني أن الإسلام أصبح مشبوهاً، فلا بد من تخصيصه، فهذه انحرافات عنه يجب بيان حالها، دون الحاجة إلى جعلها مؤثرة في مفهوم الإسلام نفسه.

السياق الثاني:

وهو يتعلق بمفهوم الاعتدال المقرون بالإسلام، فما هو هذا الاعتدال؟

يجب معرفة حدود الاعتدال والمرجعية المحددة له، لئلا يكون قالبًا يمرَّر من خلاله مختلف الانحرافات في السلوك والتصور، ثم تنسب للإسلام، بذريعة أنها تمثل الإسلام الوسطي المعتدل.

ضابط معرفة الاعتدال الممدوح هو الشريعة نفسها، فمن تمسك بالإسلام حقًّا بأحكامه وتشريعاته وحدوده فهو الواقع في مربع الاعتدال، المبرأ من مظاهر الغلو وصور الجفاء.

الحل لمعالجة إشكالات التطرف والغلو هو في التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم- لمعرفة مواطن الغلو والتطرف، والجفاء والتساهل.

قد يقال: لكن الاحتكام إلى الكتاب والسنة سيقع فيه من الاختلاف ذات ما يقع هنا؟

الجواب يدرك من خلال الجمع بين أمرين:

الأمر الأول: أنَّ هذا الاختلاف ليس موجوداً في كل القضايا ..

- ثمَّ مواضع محكمة يمثّل فيها الاعتدال دائرة من أصابها فهو المعتدل، ومن انحرف عنها خرج عن حد الاعتدال، وهم في ذلك على درجات بحسب قربهم وبعدهم من هذه الدائرة.
- وثمَّ مواضع تحتمل الخلاف المعتبر، والنظر والاجتهاد، ولا يسلب المختلفون وصف الاعتدال ما دام اختلافهم سائغاً وما داموا يعملون في هذه الدائرة.

الأمر الثاني: أنَّ ثمَّ منهجية شرعية منضبطة يجب السير عليها طلبًا للأرجح من تلك الأقوال التي تمثل في عين هذا الطالب موطن الاعتدال.

إذاً الخلاف في دعوى التمسك بالكتاب والسنة يُحسم من خلال هذين المعيارين:

١- معيار المحكمات التي لا يختلف فيها.

٢- معيار المنهج الذي يُسار إليه في النظر.

سبيل الوسطية ليس في اتخاذ موقف الوسط بين كل طرفين متخاصمين، وإنما هو تابع لاتباع الشرع. الوسطية في ضوء الوحي ليست وسطية واحدة، بل هي وسطيتان:

وسطية مطلوبة مرغوبة

من شواهدها: وسطية من أنعم الله عليهم من المؤمنين. قال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} الفاتحة:٦،٧

وسطية مرفوضة مذمومة

من شواهدها: ما حكاه الله من أحوال المنافقين. قال تعالى: {مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَـؤُلاَءِ} النساء:١٤٣

والفرق بين هاتين الوسطيتين في الحقيقة يعود إلى طبيعة الطرفين، فإن كانت وسطاً بين باطلين فهي ممدوحة، وإن كانت وسطاً بين حق وباطل فهي مذمومة.

الخلاصة:

أنه مع كثرة الطرق على أهمية الاعتدال، قد لا يتفطن المسلم إلى أن بعض هذه الدعاوى تسعى لأن تقيد الإسلام بالاعتدال الذي تريده، فالاعتدال عندها وصف خارجي، وقناعات مسبقة، متأثرة بمرجعيات مختلفة، والإسلام براء من هذه الوسطية وهذا الاعتدال.

(٣٣)
الدين ليس هشاً حتى يُخاف عليه

تمثّل هذه المقولة وصفاً صحيحاً لا يُختلف عليه، فدين الإسلام قوي ببراهينه وأحكامه، ولا يُخشى عليه من الشبهات والأفكار المخالفة، لأنه دين رب العالمين.

حقيقة الأمر: أنَّ الخوف على دين المسلم أن يضل عن الإسلام، وليس خوفاً على الإسلام نفسه.

فلا معنى إذاً لذكر هذه المقولة عند الحديث عن أهمية الثبات على دين الإسلام، وتذكير المسلم بواجبه في المحافظة على دينه، وضرورة صيانته مما قد يضره ويضعفه، كما حثت عليه النصوص الشرعية المتكاثرة.

- التثبيت هو هداية وتوفيق من الله، مفتاحه صدق اللجأ والاستعانة بالله، وعدم الاتكال على هذه النفس والاطمئنان إليها.
- المؤمن يخشى على دينه أن يضعف أو يسلب، وخشيته هذه هي ما يبعث في نفسه الصيانة والعناية والاهتمام بشأن الدين.
- من أكثر المهددات للدين الاستغراق في النظر في الشبهات وملاحقتها، **إذ القلوب ضعيفة والشبه خطافة.**

- كثرة الواردات الفاسدة على النفس لها دور هائل في إفساد القلب، بما ينعكس سلباً على برد اليقين وصلابة الإيمان.
- التحوط الذي كان يبديه أئمة السلف في تعاطيهم مع الشبهات والإشكالات مع عظيم تدينهم وصدق إيمانهم ليس ناتجًا عن ضعف معرفي، بل صحة التصور عندهم مبنيةٌ على حجج وبراهين ومعرفة للحقّ في مثل هذه الثوابت الشرعية، فلا مصلحة من إصغاء الأذن بعدها إلى شيء من الباطل الذي قد يجتذب القلب صوبه.

- **السلامة لدين المرء هي في:**
  ١. الابتعاد عن موارد الشبهات.
  ٢. التعرف إلى الحق بدلائله الصحيحة.

أما البروز لكل شبهة وإشكال فصاحبه عرضة لكثير من الزلل والخطأ.

- إن اقتضت المصلحة الشرعية الاطلاع على الباطل، والنظر في الشبهات، للرد عليها مثلاً، فالأمر ليس متروكًا لكل أحد، بل له ضوابطه وشروطه.

وهو يتفاوت باعتبارات متعددة:

باعتبار حال الشخص ومدى علمه بالشرع.

بحسب عقل الشخص وطبيعته النفسية.

باعتبار مستوى الشبهة، فأصول الشبهات غير تفاصيلها.

باعتبار عموم البلوى بمصدر الشبهة.

باعتبار حال السائل.. إلى غير ذلك من اعتبارات.

قد يقال هنا: لكن الذي يخشى من هذه الشبهات هو المؤمن الضعيف، الذي لم يتسلح بالحجة والبرهان، بخلاف القوي المُطَّلع المنفتح فإنه لا يخشى على دينه.

هذه في الحقيقة شعارات فارغة، تستغل بعض المعاني الحسنة، لتضليل الناس.

إنَّ من يفقه حقيقة الإيمان يعرف أن كل إنسان ضعيف أمام المؤثرات التي تضر بالدين، وأنه معرض لترك دينه ما لم يتداركه الله برحمته.

وكيف يظن مسلم أنه قوي لا خوف على إيمانه بعد إدراكه حال نبي الله –صلى الله عليه وسلم- ودعاءه المستمر بالثبات على الدين، وهي حال مطردة عند الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

إنَّ هذا من الوعي الواجب والذي يفرض منهجية واعية صلبة في التعاطي مع الشبهات.

خمس حقائق يغفل عنها كثير من الناس:

- **الحقيقة الأولى:** أنَّ الدخول في الإسلام من أجلِّ نعم الله على عبده يختار الله لها من يشاء.
- **الحقيقة الثانية:** أنَّ الله يحول بين بعض الناس والهداية، فلا يتمكن من فهم الحق، ولا ينشرح صدره له، ولا ينتفع بما يسمع من حجج وبراهين.

- **الحقيقة الثالثة:** أنَّ الله قد حكى في القرآن أنَّ سبب ضلال كثير من الناس ليس عدم فهمهم للأدلة، وإنما لأمراض سكنت نفوسهم، من حب المال والدنيا، والتعصب للآباء، والحسد، وغيرها.

- **الحقيقة الرابعة:** أنَّ الإيمان ليس مجرد المعرفة والإقرار، بل هو التزام وانقياد وامتثال لأمر الله وأمر رسوله –صلى الله عليه وسلم-، وهذا الامتثال يتطلب تزكيةً للنفس وتطهيراً للقلب.

- **الحقيقة الخامسة:** قيام الدنيا على الابتلاء والتمحيص، فقضايا الإيمان ليست مجرد مسائل عقلية تفهم أو لا تفهم، بل تختبر النفوس ليظهر الثبات والصبر وتقديم مراد الله.

يأتي في هذا السياق تسويغٌ للانفتاح على الأفكار والشبهات من دون أي تحفظ، **بدعوى أنَّ الشك هو طريق اليقين**، وتتضح هشاشة هذه العبارة من خلال الأوجه التالية:

- **الوجه الأول:** أنَّ من وصل إلى اليقين لا حاجة له أن يعود شاكاً في يقينه مرة أخرى، فهذا ضرب من العبث.

- **الوجه الثاني:** أنَّ الشك ليس طريقًا إلى اليقين دائمًا، فهذه عبارة غير موضوعية ولا واقعية، فالشاك قد يصل إلى اليقين وقد لا يصل، بل من جعل الشك منهجًا له في كل أحواله لن يستقيم له إيمان بتاتاً.

الوجه الثالث: أنَّ الإيمان الذي لم يتعود على الشكوك ليس إيماناً ضعيفاً هشاً كما يتوهم، فليس قوة الإيمان وضعفه مبنية على القدرة على معرفة الحجاج والأدلة في القضايا الدينية الجدلية. ولهذا قد تجد عند كثير من العوام من قوة الإيمان ما لا تجده عند غيرهم ممن هو أعرف بطرق النظر والاستدلال.

التأكيد على ضرورة تقوية إيمان المسلمين بالحجج والبراهين التي تصونهم من تأثير الشبهات المعاصرة؛ حقٌّ لا إشكال فيه، لكن هذا يختلف عن التحريض الفوضوي للشبهات.

سـيقال هنـا: هـذا يعنـي أن نعطل عقولنا فلا نعترض ولا نسأل ولا نناقش؟

المشكلة الحقيقية ليست مع السؤال، بل مع منهجية تعامل المسلم مع الأسئلة، فالخلل في طريقة التعامل هو الذي يسبب الاضطراب والانحراف.

وقد كان الصحابة يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- عمَّا يُشكل عليهم ويجيبهم عليه الصلاة والسلام، وهذا يدل على أمرين:

الأمـر الأول: **ضـرورة اتسـاع صـدر الآبـاء والأمهـات والمـربين للأسـئلة التـي تـأتيهم**، وأن يُجيبـوا عليهـا بمـا يزيـل إشـكالها ويقوي الإيمان في النفوس.

الأمر الثاني: **أنَّ السؤال عما يشكل من أمر الدين لـيس محرمًا ولا مذمومًا بإطلاق.**

إنمـا يـأتي الخلـل حـين يتسـبب السـؤال فـي إضـعاف يقـين المسـلم، ويشـككه فـي أصـول دينـه، نظـراً لأنـه لـم يحسـن التعامل معه، فلم يبحث عن العلم الذي يدفع هذه الشبهة.

يقال اعتراضًا على هذا التقرير: إنَّ هذا التخوف يحرمنا من الاطلاع والانفتاح والاستفادة مما عند الآخرين من علوم وأفكار نافعة؟

- التخوف من الشبهات لن يحول بين المسلم وأي علمٍ نافع، بل هو في الواقع منهج موضوعي يسهم في صرف المسلم عن إضاعة الوقت والجهد في جزئيات محددة ضارة أو قليلة الثمرة.

- الشبهات متعلقة بجانب محدد مما يشكك في الدين وقطعياته، فليس في الانفتاح على هذه نفع، وأما بقية العلوم النافعة فهي مما يحث على الاستفادة منها.
- الإشكال ليس في أصل الاطلاع، وإنما في الانشغال به مع جهل الإنسان وعدم المعرفة الكافية.
- الاطلاع على المواد التي تثير الشبهات يتطلب من المسلم أن يكون عالمًا بدينه، حتى يستطيع أن يناقشها ويرد باطلها.

الخلاصة:

أنَّ مقولة (**الدين ليس بهذه الهشاشة فيُخاف عليه**) تسعى إلى تهوين شأن الشبهات في نفس المسلم، وتعطيه شعوراً زائفاً بالعلو العلمي، الذي كثيراً ما يتبدد مع لحظة الارتطام بأول شبهة، وإن كانت سهلة تافهة في كثير من الأحيان.